الأوائل

بقلم :
الدكتور على محمد عامر

مما يدعو الى الغبطة أن العرب دونوا تاريخهم بعناية قل أن تساويهم فيها أمة من الامم ، و فتنوا في ذلك افتنانا يدعو الى الدهشة والاعجاب ، فالفوا في التاريخ السياسي الاسفار الطوال ، وبسطوا القول في الحديث عن الملوك والخلفاء والافراد والحروب ، ومظاهر الحضارة ودرسوا مجتمعاتهم من النواحي المختلفة .

ومع ازدياد الاهتمام بالتاريخ السياسي والحضاري عندالمسلمين قفزت الى الاذهان تساؤلات ، من كان الاول في العادات والتقاليد القديمة وكذلك ألوان المعرفة المختلفة ؟ وكان الجواب يجيء في كثير من الاحيان من وحي الخيال خاصة مايتصل بالامور ذات الصلة ببدء الخليقة والعهود القديمة التي تلت ذلك .

وقد حوت هذه العهود كثيرا من الاساطير التي لاترقى الى مرتبة الحقائق التاريخية مما توارثته الاجيال وتناقلته الشفاه ، مما جعل منها ميدانا خصبا لوضاع الاحاديث الضعيفة والاخبار المكذوبة ، التي يبدو فيها أثر الخرافة والاصطناع بطريق لايحتمل النقد العلمي .

والذي يعنينا في دراسة الاوائل هو كتاب (الوسائل الى معرفة الاوائل) (١) للسيوطي ، وهو كما يقول مؤلفه : (كتاب جامع للاوائل لخصت فيه كتاب الاوائل للعسكري وزدت عليه أضعافه)

هذا وقد حوى كتاب الاوائل للعسكري بعض الاساطير التي طافت في الكتب التاريخية القديمة ، فنقلها السيوطي كما هي وان أسندها الى رواتها .

وكان المؤرخون القدامى يرون أنهم قد برئوا من المسئولية حين يلقون تبعة هذه الروايات على رواتها ، فكانوا يكتفون بايرادها مسندة ظنا منهم أنهم بصنيعهم هذا قد نفضوا أيديهم مما علق بهذه الروايات من خرافة أو شابها من وضع وكذب .

وكان حشد هذه الروايات التاريخية القديمة ـ وخاصة ماكان منها من وحي الخيال ـ أمرا درج عليه كثير من المؤرخين الاوائل ومن بعدهم ، فقد حشد ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) طائفة من الاخبار الموضوعة التي هي أقرب الى نسخ الخيال منها الى الرواية التاريخية الصحيحة ، كالحديث عن سيدنا نوح عليه السلام وأولاده ، وبلاد مصر وقراها التي سميت باسم هؤلاء الاولاد ، وغير ذلك من الروايات التي تفتقر الى التمحيص العلمي .

وكذلك فعل المقريزي في افتتاح خططه حين تحدث عن مصر ولم سميت بذلك .

وكذلك فعل كل من بدأ كتابه في التاريخ بفصل عن بدء الخليقة .

ومما يؤخذ عن السيوطي في كتابه (الوسائل) أنه لم يقم بتمحيص الروايات الخرافية التي طافت في الكتب التاريخية القديمة ، فقد نقلها كما هي ، واكتفى بذكرها مسندة الى رواتها كما فعل سلفه ، ومن أمثلة ذلك مانقله السيوطي فيما يلي :

أول بقعة وضعت من الارض موضع البيت ، ثم مدت منها الارض ، وأول جبل وضع على وجه الارض أبو قبيس ، ثم مدت منه الجبال (٢)

أول من دخل الحمام سليمان بن داود عليه السلام (٣)

أول الناس هلاكا قريش ، وأول قريش هلاكا أهل بيتي (٤)

يضاف الى ذلك أن السيوطي اتبع في كتابه (الوسائل) طريقة النقل من الكتب السابقة بصفة عامة ، كما يفعل في كثير من كتبه ، وقد أكثر النقل عن ابن الاثير ، والازرقي ، والاسنوي ، والتقي الكرماني ، والثعالبي ، وابن

الحاج ، وابن حجر ، وابن أبي حجلة ، والخطيب البغدادي ، والذهبي ، والزبير بن بكار ، وابن سعد ، والشهرستاني ، وابن أبي شيبة ، والصفدي ، وابن الصلاح ، وابن عساكر ، وأبي الفرج الاصبهاني ، وابن فضل الله ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والمرزباني والمسبحي ، والمقريزي ، وابن ميسر ، وأبي نعيم ، والنووي ، وكثير غير هؤلاء ·

ومن هنا اختلف أسلوب الكتاب على حسب المصدر الذي نقل منه ، واحتجبت شخصية السيوطي وراء الروايات التي يغمرك بها ، والنقول التي يسوقها عن مصادر المؤرخين ·

ومهما يكن من أمر فان ذلك لايقلل من شأن السيوطي ، لأن الزيادات التي أضافها السيوطي على (أوائل) العسكري تدل من ناحية أخرى على أن السيوطي كان بارعا في جمع الاخبار ، وتعتبر عناية السيوطي بالحديث عن (الاوائل) في فجر الاسلام وكذلك عن (الاوائل) الخاصة بالدول الاسلامية عملا جليلا ، حفل بمادة قيمة ، وبصر يسترعي الانتباه ، كما تعد تعبيرا رائعا عن دراسة النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية ·

ومما يكبر من شأن السيوطي هنا ، أنه حفظ لنا كثيرا من مواد نقلها عن كتب أصبحت مفقودة ، وأخرى مازالت في دور الكتب محفوظة ·

هذا والاوائل وما وراءها من بواعث ادارية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية تحتاج الى مجلدات ومجلدات حتى يمكن استيفاء ميادينها الواسعة وجمع أطرافها المتشعبة ، ويكفي هنا أن نورد بعضا من النماذج ، لكي نتعرف على مدى أهمية دراسة هذه المادة ·

باب الحج

أولا :

تحت هذا العنوان ذكر السيوطي ، أن أول من طاف بين الصفا والمروة هاجر أم اسماعيل عليه السلام ·

ثم ذكر أن البيت كسى في الجاهلية الانطاع ، ثم كساه النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ، ثم كساه عمر القباطي ، ثم كساه الحجاج الديباج ·

ويستطرد قائلا : ان عمر بن عبد العزيز أول من أمر الناس ليلة هلال المحرم يوقدون النار في فجاج مكة ، ويضعون المصابيح للمعتمرين مخافة السرق ·

وأول من فرق بين الرجال والنساء في الطواف خالد بن عبد الله القسري والي مكة من قبل عبد الملك بن مروان ، وكان قد بلغه قول الشاعر :

ياحبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللائي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فقال خالد : أما انهن لايزاحمنك بعد هذا ، فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف ·

ويعتبر عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي أمير مكة في خلافة هارون الرشيد ، أول من عمل مظلة المؤذنين التي على سطح المسجد ، يؤذن فيها المؤذنون يوم الجمعة والامام على المنبر ، وكان المؤذنون يجلسون هنالك يوم الجمعة في الشمس في الصيف والشتاء (٥)

ثم يستطرد السيوطي في حديثه عن الاوائل ذات الدلالة على عادات وتقاليد القدامى الذين عاشوا في الجاهلية وصدر الاسلام ، والتحقيق عن أول نشوئها وزمانه ·

وهكذا نلمح من خلال هذه المادة أسماء الرجال الذين طوروا كسوة الكعبة ، كما نلمح البواعث من وراء ايقاد النار في فجاج مكة ووضع المصابيح للمعتمرين ، وأيضا الباعث على التفريق بين الرجال والنساء في الطواف وما الى ذلك ·

الاسماء والالقاب :

ثانيا :

وتحت هذا العنوان يذكر السيوطي أن أول من لقب بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، وتكاد تتفق الروايات التاريخية في هذا الشأن بأن تلقيب عمر بأمير المؤمنين قد جاء على يد مبعوثي عامله بالعراق ، وأصل ذلك أن عمر رضي الله عنه بعث الى عامله بالعراق أن يرسل اليه رجلين عارفين بأمور العراق يسالهما عما يريد ، فأنفذ اليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فلما وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص ، فقالا له : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال لهما عمرو : أنتما أصبتما اسمه ؟ ثم دخل على عمر فقال السلام على (أمير المؤمنين ـ فقال : مابدا لك يابن العاص ؟ لتخرجن من هذا القول ! فقص عليه الامر فاقره على ذلك ، فكان ذلك أول تلقيبه بأمير المؤمنين (٦)

هذا وقد تابع السيوطي دراساته في هذا الموضوع حتى عصره ، فهو يذكر مثلا ، أن أول من لقب بالاتابك نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، وذلك حين فوض اليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ٠

وتلقب صاحب ديوان الانشاء في مصر بكاتب السر ، وهي التسمية التي أطلقت لاول مرة سنة ٦٧٨ هـ في عهد قلاوون على القاضي فتح الدين محمد بن عبد الظاهر ، وصار بذلك أول كاتب سر في الدولة المملوكية وغيرها ٠

كذلك كان الامير (شيخو) أول من لقب الامير الكبير في مصر ، وذلك في سنة ٧٥٥ هـ (٧)

والالقاب تعتبر أساسا هاما لمعرفة مكانة الفرد في المجتمع والدلالة على حيثيته ، وهي كما يقرر الباحثون : (تفيد بصفة خاصة في تفهم بعض النظم والاتجاهات التي قد يغفل ذكرها ، أو لاتبرز بوضوح في المصادر التاريخية ، وتصبح الالقاب ذات أهمية كبيرة اذا درست نشأتها وتطورها على مدى الايام في ضوء مايحيط بها من ظواهر اجتماعية وسياسية ودينية ، وما تقدمها

أو لحق بها من ظروف تاريخية عامة ، اذ أنها حينئذ تلقي ضوءا من زاوية جديدة على كثير منا لاحداث السياسية والاجتماعية في تاريخ الاسلام) (٨)

فتلقيب عمر رضي الله عنه بأمير المؤمنين يتواءم مع معنى أمير الذي يوحى بالولاية العامة ، وكذا اضافة المؤمنين اليه ، اذ أنها تضفي على اللقب الصفة الدينية الى جانب السمات السياسية والادارية وغيرها ، واذا كانت قيادة الجيوش تعني الامرة عليها ، فان هذا اللقب يوحي أيضا بأن المؤمنين قد استحالوا الى قوة حربية ، وبذلك يتواءم اللقب مع فجر الاسلام لما فيه من فتوحات تعني السلطة الحربية الى جانب السلطة الادارية (٩)

واذا كانت (أتابك) في نشأتها لقب لاحد كبار أصحاب المناصب في عهد السلاجقة ومن خلفوهم ، فقد تحول هذا اللقب في الدولة المملوكية الى لقب عسكري ، فأصبح يطلق على القائد العام للجيش المملوكي في مصر ، ومن ثم غدا الاتابك بحكم منصبه صاحب النفوذ الكبير والكلمة العليا في الدولة ·

وكثيرا ما مهدت هذه الوظيفة لتولي السلطنة في مصر ، كما فعل الامير زين الدين كتبغا المنصوري عندما استبد بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الاولى ، حتى انتهى الامر بالاتابك الى اعلان نفسه سلطانا سنة ١٢٩٤/٦٩٤ م (١٠)

وهكذا يطول بنا المقام لو استعرضنا الظروف التي تقدمت هذه الانقاب أو لحقت بها ، وانما الذي يعنينا أن نلفت النظر الى أن دراسة الاوائل سوف تزيل الالتباس عن كثير من الحقائق التاريخية المجهولة ، وهي ولا شك حافلة بمادة قيمة تسترعي النظر والاهتمام ·

هذا وقد سبق السيوطي في هذا الفن كثير من المؤرخين ، وأقدم مانعرف عن كتب الاوائل عند المسلمين يرجع الى بداية القرن انثالث الهجري ، حيث كتب هشام بن الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ مصنفا بعنوان (كتاب الاوائل) (١١)

وفي الفترة نفسها كتب المدائني المتوفي سنة ٢٢٥ هـ مصنفا بعنوان كتاب (الاوائل) (١٢)

كما تناول أبو بكر بن أبي شيبة المتوفي سنة ٢٣٥ ﻫ في كتابه (المصنف الكبير) الاوائل في اتصالها ببدء الخليقة وتاريخ المسلمين وعاداتهم ٠

ومن الكتب التي استقلت بمعالجة هذا الفن كتاب (الاوائل) لابي هلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ ﻫ وهو الكتاب الذي اعتمد عليه السيوطي ولخصه في كتابه (الوسائل)

وممن ألف في الاوائل أيضا :

اسماعيل بن هبة الموصلي المتوفي سنة ٦٣١ ﻫ كتب مصنفا بعنوان (غاية الوسائل الى معرفة الاوائل) (١٣)

وبدر الدين محمد بن عبد الله الدمشقي الشبلي المتوفي سنة ٧٦٩ ﻫ له مصنف بعنوان (محاسن الوسائل الى معرفة الاوائل) (١٤)

وشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ ﻫ له كتاب بعنوان (اقامة الدلائل على معرفة الاوائل) ، لم نعثر عليه بعد ، وقد أشار اليه حاجي خليفة (١٥) وتقي الدين أبو بكر بن زيد الجراعي الحنبلي المتوفي سنة ٨٨٣ ﻫ كتب مصنفه باسم (كتاب الاوائل) مخطوط ببرلين رقم ٩٣٦٨ (١٦)

ومحمد بن علي بن طولون الحنفي المتوفي سنة ٩٥٣ ﻫ له كتاب اسمه (عنوان الرسائل في معرفة الاوائل (١٧)

وبالاضافة الى هذه الكتب التي ألفت في هذا الفن استقلالا فهناك جمهرة من العلماء والمؤرخين احتوت مصنفاتهم على فصل عن (الاوائل) منهم :

ابن قتيبة في كتابه (المعارف) « ص ٥٥١ ــ ٥٥٨ »

وأبو الفرج بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ ﻫ في كتابه (تلقيح فهوم أهل الاثر) (ص ٤٦١ ــ ٤٦٨)

وابو العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ هـ في كتابه ـ صبح الاعشي ـ « ج ١ ص ٤١٢ ـ ٤٣٦ »

وآخر من ألف في هذا الفن ـ فيما نعلم ـ علاء الدين علي السكتواري المتوفي سنة ١٠٠٧ هـ وكتابه (محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر) مطبوع ·

المراجـــــع

١ ـ طبع هذا الكتاب في بغداد سنة ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠ م بعنوان (الوسائل الى مسامرة الاوائل) هذا وقد ذكر السيوطي في مقدمة كتابه هذا ان الاصول المزيدة التي لم يذكرها العسكري فهي مميزة بصورة (ك) على أولها ، ثم أشار محقق الكتاب انه لم يجد في المخطوط الذي رجع اليه شيئا من ذلك ، وكان قد رجع الى مخطوطة واحدة ، هذا وقد انهى كاتب هذا المقال تحقيق هذا الكتاب على سبع نسخ خطية بعضها مميز بصورة (ك) التي ترمز الى الاصول المزيدة عند السيوطي ·

٢ ـ الحديث في الجامع الصغير للسيوطي (ج ١ ص ١١٢) ورمز لضعفه ·

٣ ـ الحديث في الجامع الصغير (ج ١ ص ١١٣) ورمز لضعفه

٤ ـ اورده السيوطي في الجامع الصغير (ج ١ ص ١١١) ورمز لضعفه

٥ ـ انظر الاوائل للسيوطي ص ٣٢ ـ ٣٨

٦ ـ انظر في ذلك : العسكري : الاوائل ورقة ٧٣ ، ٧٤ ، والقلقشندي : صبح الاعشي ج ٥ ص ٤٧٦ ، والسيوطي الاوائل ص ٧٦

٧ ـ انظر الاوائل للسيوطي ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩

٨ ـ حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص ٢

٩ ـ حسن الباشا : نفس المصدر ص ١٩٤

١٠ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ القسم الاول ص ٢٨٦

١١ ـ ياقوت : ارشاد الاديب ج ٧ ص ٢٥٢

١٢ ـ ياقوت : المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٧

١٣ ـ من هذا الكتاب نسخة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٣٥١ تاريخ

١٤ ـ من هذا الكتاب أيضا نسخة بمعهد المخطوطات برقم ٤٥٥ تاريخ

١٥ ـ انظر : كشف الظنون ج ١ ص ١٣٤

١٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ ص ١٦٨

١٧ ـ منه نسخة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية برقم ٣٤١ تاريخ

الهوامش

١ ـ ابن اياس : محمد بن أحمد الحنفي (٩٣٠ ﻫ)
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجزء الاول ، القسم الاول والثاني ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ م

٢ ـ حسن الباشا : الدكتور حسن الباشا
الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والاثار ، النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م

٣ ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (٩١١ ﻫ)
الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، مصطفى الجلبي ، القاهرة الطبعة الرابعة •
الوسائل الى مسامرة الاوائل ، بغداد ١٩٥٠ م

٤ ـ العسكري : الحسن بن عبد الله (٣٩٥ ﻫ)
الاوائل ، مخطوط ، المكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ١٨ فنون

٥ ـ القلقشندي : أبو العبس أحمد بن علي (٨٢١ ﻫ)
صبح الاعشي في صناعة الانشاء ، المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ م مصورة عن الطبعة الاميرية القاهرة ١٩٢٠

٦ ـ ياقوت : شهاب الدين ياقوت الرومي (٦٢٦ ﻫ) ارشاد الاريب ، طبعة هندية القاهرة ١٩٢٣ م

٧ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، كتاب الشعب ١٩٦٩ م

٨ ـ فهرس المخطوطات المصورة (التاريخ) الجزء الثاني معهد المخطوطات العربية •